تفسير كلّ آية بجملة

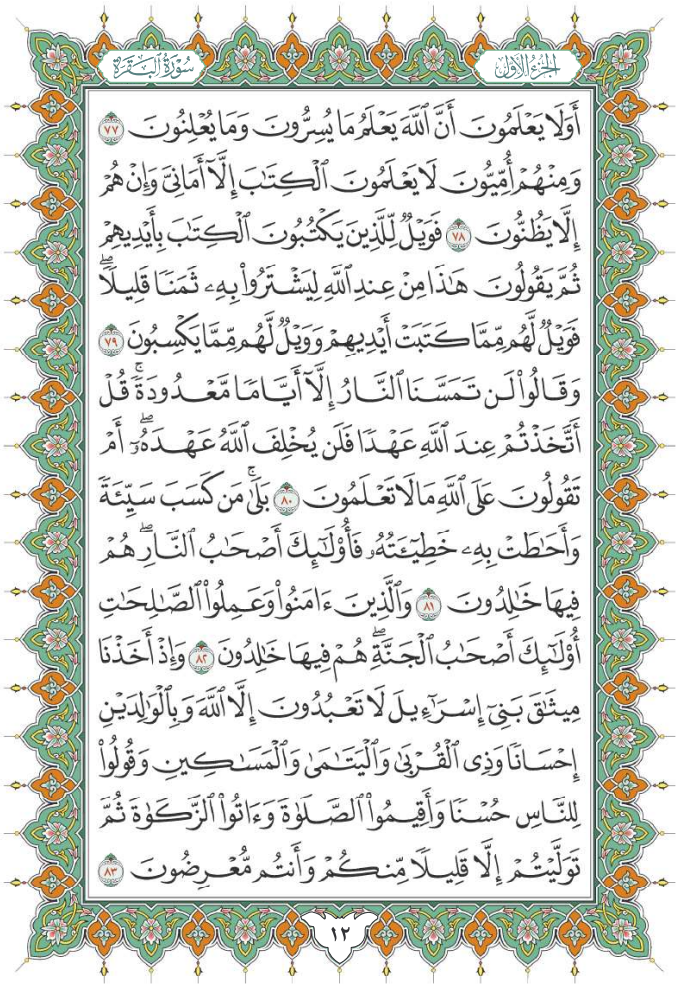

﴿٧٧﴾ - ولكن هل غاب عن هؤلاء وأولئك أنّ الله ليس بحاجة إلى مثل هذه الحُجّة، لأنّه يعلم ما يخفون من دسائسهم وما يبدونه!

﴿٧٨﴾ - ومن اليهود فريق جهلة أمّيّون- سذّج- جاهلون لا يعرفون من التّوراة إلا الأكاذيب، أخذوها تقليدًا من أحبارهم المحرّفين والمؤوّلين، وهي تتّفق مع أمانيهم، وألقوا في ظنّهم أنّها حقائق من الكتاب.

﴿٧٩﴾ - إنّ الهلاك والعذاب لهؤلاء الأحبار الذين يكتبون كتبًا بأيديهم، ثمّ يقولون للأمّيّين: هذه هي التّوراة التي جاءت من عند الله، ليصلوا من وراء ذلك إلى غرض تافه من أغراض الدّنيا، فيشتروا التّافه من حطام الدّنيا بثمن غالٍ وعزيز هو الحقيقة والصّدق، فويلٌ لهم ممّا تقوّلوه على الله، وويلٌ لهم ممّا يكسبون من ثمرات افترائهم.

﴿٨٠﴾ - ومن اختلاقاتهم وأكاذيبهم، ما يتلقّونه من أحبارهم من أنّ النّار لن تمسّ يهوديًّا مهما ارتكب من المعاصي، إلّا أيامًا معدودة، فقل لهم يا محمّد: هل تعاهدتم مع الله على ذلك فاطمأنّيتم، لأنّ الله لا يخلف عهده، أم أنّكم تفترون على الله الكذب.

﴿٨١﴾ - إنّ الحقّ أنّكم تفترون على الله الكذب، فحكم الله العام نافذ في خلقه جميعًا لا فرق بين يهوديّ وغيره، لأنّ من ارتكب سيّئة أحاطت به آثامه حتى سدّت عليه منافذ الخلاص. فأولئك أصحاب النّار يقيمون فيها أبد الآبدين.

﴿٨٢﴾ - والذين آمنوا وعملوا الصّالحات أولئك أصحاب الجنّة، لأنّهم آمنوا وأدّوا ما يفرضه عليهم إيمانهم من صالح الأعمال، فهم فيها خالدون.

﴿٨٣﴾ - إنّ لكم يا معشر اليهود بجانب هذا كلّه ماضيًا حافلًا بالإثم ونقض المواثيق، والتّعدّي على ما وضعه الله لكم من الحدود. فلتذكروا إذ أخذنا عليكم في التّوراة ميثاقًا ألّا تعبدوا إلا الله، وأن تحسنوا إلى الوالدين والأقربين واليتامى والمساكين، وتستخدموا في حديثكم مع النّاس القول الطيّب الذي يؤلّف بينكم كي لا ينفّرهم منكم، وتؤدّوا ما فرض الله عليكم من صلاة وزكاة. ولتذكروا ما كان من مسلككم حيال هذا الميثاق، إذ نقضتموه وأعرضتم عنه إلا قليلًا منكم ممّن أذعن للحقّ.

الآيات من 75 - 78

استبعاد إيمان اليهود

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُوٓاْ آمَنَّا وَإِذَا خَلا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾.

أسباب النزول والمناسبة

سبب نزول الآية (٧٥): قال ابن عبّاس ﷺ: إنّ هذه الآية ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا﴾ نزلت في السّبعين الذين اختارهم موسى عليه السلام ليذهبوا معه لميعاد ربّه، فلمّا سمعوا كلام الله تعالى وهو يأمر وينهى، رجعوا إلى قومهم، فأدّت طائفةٌ من الصّادقين منهم ما سمعوا، وقالت طائفة أخرى: سمعنا الله من لفظ كلامه يقول: إن استطعتم أن تفعلوا ما أمرتُ فافعلوا، وإن شئتم فلا تفعلوا، ولا بأس، وعند أكثر المفسّرين، نزلت الآية في الذين غيّروا آية الرّجم وصفة محمّد ﷺ.

وسبب نزول الآية (٧٦): قال مجاهد: قام النّبيّ ﷺ يوم قريظة تحت حصونهم، فقال: يا إخوان القردة، ويا إخوان الخنازير، ويا عبدة الطّاغوت، فقالوا: من أخبر بهذا محمّدًا؟ ما خرج هذا إلا منكم، أتحدّثونهم بما فتح الله عليكم، ليكون لهم حجّة عليكم، فنزلت الآية.

وقال ابن عبّاس ﷺ: كانوا ﴿إِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾ أنّ صاحبكم رسول الله، ولكنّه إليكم خاصّة. ﴿وَإِذَا خَلا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ قالوا: أيحدّث العرب بهذا، فإنّكم كنتم تستفتحون به عليهم، فكان منهم، فأنزل الله: ﴿وَإِذَا لَقُوا﴾.

مِنَ الأُمُورِ الَّتِي فَعَلَها اليَهودُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُمْ كانُوا يَجْتَمِعونَ في ما بَيْنَهُمْ، وَيُخْفِضونَ أَصْواتَهُمْ عِنْدَ الحَديثِ، وَيَقولونَ: "لَمْ نُؤْمِنْ بِالنَّبِيِّ ﷺ، وَلْنُخْفِضْ أَصْوَاتَنا حَتَّى لا يَسْمَعَنا اللَّهُ سُبْحانَهُ وَتَعالى." كانُوا يَعْتَقِدونَ جَهْلًا أَنَّ خَفْضَ أَصْواتِهِمْ يُمْكِنُ أَنْ يُخْفِيَ أَمْرَهُمْ عَنِ اللَّهِ ﷻ. وَكانُوا يَظُنُّونَ أَنَّ اللَّهَ تَعالى لا يَعْلَمُ وَلا يَسْمَعُ ما يَتَحَدَّثونَ بِهِ فيما بَيْنَهُمْ، وَكَأَنَّ اللَّهَ تَعالى يُجْري في كَوْنِهِ أُمُورًا خارِجَةً عَنْ إِرادَتِهِ! وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ سُبْحانَهُ تَعالى ذَلِكَ في ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾﴾[1]. وَكانَ عِنْدَ اليَهودِ هَذا المُعْتَقَدُ بِقُوَّةٍ، وَقَدْ وَرَدَ ما يَدُلُّ عَلى ذَلِكَ في التَّوْراةِ المُحَرَّفَةِ. وَاللهُ تعالى هو السَّميعُ العَليمُ، المُطَّلِعُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ، وَلا يَخْفَى عَلَيْهِ أَمْرٌ في السَّماواتِ وَالأَرْضِ.

وقال السّدي: نزلت في أناس من اليهود آمنوا ثمّ نافقوا، وكانوا يأتون المؤمنين من العرب بما تحدّثوا به، فقال بعضهم: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ﴾ من العذاب، ليقولوا: نحن أحبّ إلى الله منكم وأكرم.

(١) سورة البقرة، الآية:٧٦.

المعنى العام

استهلّ تعالى الآية بعتاب المؤمنين فقال ﷻ: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ﴾ يا معشر المسلمين المؤمنين ﴿أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ هؤلاء اليهود، ويُذعنوا وينقادوا لكم بالطّاعة ويُصدّقوكم وقد شاهد آباؤهم من الآيات البيّنات، ثمّ قست قلوبهم من بعد ذلك ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ من الفرقة الضّالّة ﴿يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ حين كلّفهم بمشاقّ التّوراة، ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ﴾ محوًا أو تأويلًا ﴿مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ فهموه على الجليّة، ومع هذا يخالفونه على بصيرة ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنّهم مخطئون فيما ذهبوا إليه من تحريفه وتأويل كلام الله، وهذا المقام شبيه بقوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾.(١) هذه الآياتُ تحمل أعظمَ تعزيةٍ لرسول الله ﷺ، وتطالبه بألّا يحزنَ على عدم إيمان اليهود به لأنّه مكلّف بالبلاغ فقط، ولكنَّ حرصَ الرّسول ﷺ على إيمان أهل الأرض كلّهم لا يعني أنّه لم يفهمْ خطاب ربّه، ومعناه أنّه أدرك حلاوة التّكليف من ربّه بحيث يريد أن يهدِيَ كلَّ خلق الله تعالى، والطَّمَعُ هو رغبَةُ النَّفس في شيء غير حقّها وإن كان محبوبًا لها. فكلمة "أفتطمعون" هنا تحدّدُ أنّه يجب ألّا نطمعَ إلّا فيما نقدر عليه. وهداية اليهود أمر زائد على ما كُلّفنا به وإن كان محبوبًا لدينا. ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ﴾.(٢)

قال ابن عبّاس ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا﴾ وهم اليهود الذين آمنوا ثمّ نافقوا ﴿الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾ بأنّ صاحبكم رسول الله ولكنّه إليكم خاصّة ﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا﴾ لا تحدّثوا العرب بهذا وقد كنتم تستفتحون به عليهم وتقرّون بأنّه نبيّ فكان منهم.

﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ وأنزل في كتابكم من نعت محمّد ﷺ، وقد علمتم أنّه قد أُخذ عليكم الميثاق باتّباعه، لأنّه النّبيّ المنتظر في كتابكم، اجحَدُوا هذا ولا تُقِرُّوا به. ﴿لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ فيجادلوكم بما أنزل الله في كتابه، ويغلبوكم بالحجّة. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أنّ ذلك لا يليق بما أنتم عليه.

قال تعالى ردًا عليهم وتوبيخًا ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾(٣) أي ما أسرّوا من كفرهم بمحمّد ﷺ وتكذيبهم به، ونهي بعضهم بعضًا أن يخبر أحدهم أصحاب محمّد ﷺ، ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ بما فتح الله عليهم مكتوبًا عندهم في التّوراة فيجازيهم على ما أخفوا وما أعلنوا.

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾

يصف تعالى فريقًا منهم ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ﴾ عوامٌّ أميّون من اليهود ﴿لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ﴾ لا يقرأون الكتاب ولا يفهمونه، ﴿إِلَّا أَمَانِيَّ﴾ كاذبة يسمعونها من أحبارهم من أنّ الله يعفو عنهم ويرحمهم، وأنّ النّار لن تمسّهم إلّا أيّامًا معدودة، وأنّ آباءهم الأنبياء يشفعون لهم، وأنّهم أبناء الله وأحباؤه، إلى غير ما هنالك من الأمانيّ الفارغة ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أشياء يظنّونها من الكتاب، ولا علم لهم بصحّتها، كتغيير صفته ﷺ.

(١) سورة البقرة، الآية:٧٦. (٢) سورة الغاشية: الآية ٢١-٢٤. (٣) سورة البقرة، الآية: ٧٧.

ما يستخلص من الآيات

في العقيدة

من هدي الآيات:

١. النِّفاقُ ظاهرةٌ عامّة موجودة عند جميع الأجناس، فليس هو محصورًا فيمن نافق من أهل المدينة فقط، بل هو عند أهل الكتاب من اليهود كما أشارت إليه الآيات، وعند النّصارى وغيرهم ومن هنا وجبَ على المسلمين أخذُ الحيطة حتّى لا ينخدعوا بالإيمان المُزَيَّفِ، ويتجرّعوا من ورائِهِ الوَيْلاتِ.

٢. ألّا يبعد الناس عن قبول الحقّ والإذعان له: وأَبْعَدُ الناس عن قبول الحقّ هم اليهود.

٣. قبح إنكار الحقّ بعد معرفته: غضب الله على من ينكر الحقّ بعد معرفته، إذ سمّاهم "المغضوب عليهم" مع كلّ من يفعل فعلهم.

٤. صعوبة فهم ودراسة الكتاب وعدم الاقتصار على حفظ: ليس كلّ من يقرأ الكتاب يفهم معانيه أو يعرف حِكَمَه وأسراره، وواقع الكثير من المسلمين اليوم شاهد على ذلك، حيث يحفظ البعض القرآن دون أن يدركوا معانيه، فضلاً عن الّذين لا يحفظونه، لذا لا بدّ من مدارسته.

٥. التّحقّق من المعلومة قبل التّحدث بها: أمرنا الله تعالى بالتثبّت من المعلومات قبل نقلها أو التحدّث بها.

عقيدة المسلم بعلم الله تعالى:

اعلم أيّها العبد أنّ الله بكلّ شيء **عليم**، يعلم الجهر وما يخفى، ويعلم كلّ شيء علمًا مطلقًا كاملًا شاملًا، يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، مثال: هل سيطغى الفقير لو أُعطي مالًا كثيرًا؟ ولو خُلق هذا الذّكر أنثى كيف كان سيتصرّف؟ وهكذا إلى ما لا نهاية. وعِلْمُ الله تعالى أزليّ، يعلم أزلًا كلّ شيء ولا يزداد علمه ولا معرفته، إذ يعلم كلّ شيء أزلًا، فقد أحاط علمه تعالى بكلّ شيء جملةً وتفصيلًا.

أمّا العبد فلا يعلم إلا ما شاء الله له أن يعلم، فهو سبحانه العالم الذي علّم عباده ما فيه مصالحهم في الدّنيا والآخرة، وهو الذي يعلم أقوالهم وأفعالهم، ويعلم ما بين أيديهم وما خلفهم: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾[١].

قال تعالى: ﴿هُوَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾[٢].

وقال: ﴿قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٣].

وقال أيضًا: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾[٤].

هو سبحانه **العليم الخبير**، يعلم مثاقيل الجبال، ومكاييل البحار، وعدد قطر الأمطار، وعدد ذرّات الرّمال، وعدد ورق الأشجار، وما أظلم عليه اللّيل، وما أشرق عليه النّهار، لا تواري منه سماء سماءً، ولا أرض أرضًا، ولا جبل ما في وعره، ولا بحر ما في قعره.

وهو سبحانه **اللّطيف الخبير** الذي يعلم القليل والكثير، ويعلم الصّغير والكبير، ويعلم القريب والبعيد، ويعلم الباطن والظّاهر: ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللهُ إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾[٥]

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.
(٢) سورة الحشر، الآية: ٢٢.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ٢٩.
(٤) سورة التوبة، الآية: ٧٨.
(٥) سورة لقمان، الآية: ١٦.

فسبحان **اللّطيف الخبير**، المطّلع على البواطن والأسرار، الذي يعلم خفايا القفار والبحار والجبال،﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾[1]

والله سبحانه هو **العليم** بكلّ شيء، ولا يخفى عليه من أحوال خلقه شيء، فهو الذي خلق البشر، وخلق قلوبهم، وخلق نفوسهم، وهو الذي يعلم مداخلها ومكامنها، ويعلم الجهر وما يخفى.

فماذا نخفي؟... وماذا نعلن؟ ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾[2]

إنّ السّر والجهر كلّه مكشوف لعلم الله على حدٍّ سواء، وهو سبحانه يعلم ما هو أخفى من السّر، وهو عليم بذات الصّدور، فهو الذي خلق ما في الصّدور، أفلا يعلم سبحانه من خلق وهو الذي خلق؟

وهو سبحانه **اللطيف الخبير**، الذي يصل علمه إلى الدّقيق والصّغير، والخفيّ والمستور، فيعلم النّيات والإرادات، والأقوال والأفعال، والسّرائر والغيوب: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ* أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[3]

والله ﷻ محيط بكلّ شيء، أحاط علمه بالبشر وحركاتهم، فهم في قبضته، لا ينامون إلا بإذنه، ولا يقومون إلا بإذنه، ولا تتحرّك جوارحهم بفعل أو ترك إلا بإذنه، ولا يعملون من عمل إلا وعند الله علم بما كسبت نفوسهم من خير أو شرّ، وهم مراقبون في حركاتهم وسكناتهم، لا يخفى عن علم الله شيء: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[4].

وهو سبحانه **القاهر** فوق عباده، **العليم** بأحوالهم، **الرّقيب** عليهم، وهم جميعًا تحت سيطرته وقهره وعلمه، فكلّ حركة من حركاتهم بقدر، وكلّ نفس من أنفاسهم بقدر، والله سبحانه عليم بأحوال الخلائق كلّها، يعلم المؤمنين والكافرين والمنافقين، ويعلم خبايا نفوسهم، وما تنطوي عليه صدورهم، وما يصدر عن جوارحهم. ولكنّ الأحداث ومداولة الأيّام بين النّاس تكشف المستور، وتجعله واقعًا في حياة النّاس، وتحوّل الإيمان إلى عمل ظاهر، وتحوّل الكفر والنّفاق كذلك إلى تصرّف ظاهر، ومن ثمّ يتعلّق به الحساب والجزاء.

فالله لا يحاسب النّاس على ما يعلمه من أمرهم، ولكن يحاسبهم على وقوعه منهم: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[5]

فماذا يستر النّاس؟ وأين يستخفون؟ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[6]

إنّ القرآن يسكب هذه الحقائق العظيمة في قلب المؤمن، لأنّ استقرارها فيه ينشئ له إدراكًا صحيحًا للأمور، ويملأ قلبه بالتّعظيم والإجلال للكبير المتعال، ويبعث فيه اليقظة والتّقوى لأداء الأمانة التي يحملها المؤمن في هذه الأرض، وذلك لا يتحقّق إلا حين يستيقن القلب أنّه وما يكمن فيه من سرّ ونيّة هو من خَلْقِ الله الذي يعلمه الله، وعندئذ يتّقي المؤمن النّيّة المكنونة، والهاجس الدّفين، كما يتّقي الحركة المنظورة، والصوت الجهير، وهو يتعامل مع الله الذي يعلم السّرّ والجهر، والغيب والشّهادة، وما في القلوب وما في الصّدور: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[7].

(١) سورة الأنعام، الآية: ٥٩.
(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٣٨.
(٣) سورة الملك، الآيتان: ١٣- ١٤.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ٦٠.
(٥) سورة الأنعام، الآية: ١٦٠.
(٦) سورة المجادلة، الآية: ٧.
(٧) سورة الحجرات، الآية: ١٨.

في الأمر والنّهي

العمل بالآيات:

تذكّر أهمّيّة إصلاح السّريرة من خلال الآية الكريمة ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وما يعلنون ﴿٧٧﴾﴾

واظب يوميًّا على قراءة صفحتين أو أكثر من كتاب الله تعالى مع قراءة تفسيرها، لتكون ممّن فهم كلام الله تعالى ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَابَ إلا أماني وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾.

في الأخلاق والآداب

من الكبائر: ذو الوجهين واللّسانَيْن

قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾[2].

ذو الوجهين واللّسانين صاحب صفة مذمومة، حيث يعمل على إثبات وجوده بين أقاربه وأصحابه ومَن حوله بوجهَيْن يكتِفهما كما يشاء لينال رضا الفريقين ولو أتى بمواقف متناقضة تنتقص كلّاً منهم، ولو أدّى كلامه المختلف مع كلّ فريق لأذيّة الآخرين متسبّبًا بإفساد القلوب المتآلفة. يظنّ أنّ من حوله لا يعرف الدّور الذي يقوم به، ويعتقد أنّه بذلك الوجه المتلوّن والقناع المزيّف يحقّق أهدافه السّيّئة دون أن يُكشف أمره.

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «تَجِدُونَ النَّاسَ مَعَادِنَ، خِيَارُهُمْ فِي الجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الإِسْلاَمِ إِذَا فَقِهُوا، وَتَجِدُونَ خَيْرَ النَّاسِ فِي هَذَا الشَّأْنِ أَشَدَّهُمْ لَهُ كَرَاهِيَةً»[3] «وَتَجِدُونَ شَرَّ النَّاسِ ذَا الوَجْهَيْنِ الَّذِي يَأْتِي هَؤُلاَءِ بِوَجْهٍ، وَيَأْتِي هَؤُلاَءِ بِوَجْهٍ»[4].

ولا يمكن لذي الوجهين أن يكون أمينًا عند النّاس، لأنّ رجلًا يسعى بالفساد بين الخلق، فينفث سموم شرّه وحسد قلبه بينهم، لا يرضيه وئام النّاس واجتماعهم، فهو رجل منافق لئيم، وهو ما قرّره النّبيّ ﷺ كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا يَنْبَغِي لِذِي الْوَجْهَيْنِ أَنْ يَكُونَ أَمِينًا»[5].

التوجيهات:

تذكّر أنّ الله يعلم ما تُسِرّ وما تُعلِن؛ فلا يَرَيَنَّك في سرّك وعلانيّتك إلّا على خير، ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾﴾.

الإشارة: مَن سبقت له المشيئة بالخذلان، وحكم عليه القدر والقضاء بالحرمان، يرجع إلى الدّليل والبرهان، بعد الاستشراف على الشّهود والعيان، فيرجع إلى مشاهدة الآثار والرّسوم، وينسى ما كان يعهده من دقائق العلوم، وسبب ذلك كلّه، الإخلال بالأدب مع العلماء وأهل الله والأصحاب، أو مفارقة الإخوان، وعدم مواصلة أهل العرفان. ومن

(١) سورة البقرة، الآية: ٧٦. (٢) سورة البقرة، الآية: ١٤.

(٣) رواه البخاريّ في صحيحه، عن أبي هريرة، كتاب: المناقب، باب: قول الله تعالى ﴿يا أيّها النّاس إنّا خلقناكم﴾، حديث رقم: ٣٤٩٣.

(٤) رواه البخاريّ في صحيحه، عن أبي هريرة، كتاب: المناقب، باب: قول الله تعالى ﴿يا أيّها النّاس إنّا خلقناكم﴾، حديث رقم: ٣٤٩٤.

(٥) رواه البيهقيّ في السُّنن الكبرى، عن أبي هريرة، كتاب: الشهادات، باب: من عضّه غيره بحدّ أو نفي نسب ردّت شهادته، الحديث حسن صحيح، حديث رقم: ٢١١٥٦.

ذلك الإنكار على أولياء الله، وتحريف ما سمعه منهم من مواهب الله (لأنه لم يفهم كلامهم لعلوّ أذواقهم)، فلا مطمع في رجوعه وإيابه، وقد بَعُد من الفتح وأسبابه، لا سيّما إذا اتّصف بالنّفاق، فإذا لقي أهل النّسبة أظهر الوفاق، وإذا خلا إلى العامّة أظهر الشّقاق، فمِثلُ هذا لا يرجى له فلاح، ولا يَسعد بصلاح ونجاح[1].

أي أنّ حال الشخص الذي قدّر له الله أن يُحرم من الهداية والحقّ، سببه الأساسيّ هو إهماله الأدب مع العلماء وأهل الصلاح، وابتعاده عن الأصدقاء الصالحين وأهل المعرفة.

إنّ مثل هذا الشخص رغم أنّه قد يصل إلى مستوى من المعرفة أو الاطّلاع، يعود إلى التفكير السطحيّ ويغفل عن الحقائق العميقة؛ لأنّه لا يحترم العلماء وأولياء الله، ولا يحافظ على صحبته لأهل المعرفة.

وهذا الشخص قد يُظهر نفاقًا؛ فهو يتظاهر بالاتفاق مع أهل العلم عندما يكون معهم، لكنّه يُظهر خلاف ذلك عند الناس العاديين، ممّا يجعله بعيدًا عن الصلاح والهداية الحقيقيّة.

في السّيرة والشّمائل

عن أنس ﷺ قال: سمع عبد الله بن سلام بقدوم رسول الله ﷺ وهو في المدينة، فأتى النّبيّ ﷺ فقال: إِنِّي سَائِلُكَ عَنْ ثَلاثٍ لا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا نَبِيٌّ: "فَمَا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ؟ وَمَا أَوَّلُ طَعَامِ أَهْلِ الجَنَّةِ؟ وَمَا يَنْزِعُ الوَلَدُ إِلَى أَبِيهِ أَوْ إِلَى أُمِّهِ؟ قَالَ: «أَخْبَرَنِي بِهِنَّ جِبْرِيلُ آنِفًا» قَالَ: جِبْرِيلُ؟: قَالَ: «نَعَمْ»، قَالَ: ذَاكَ عَدُوُّ اليَهُودِ مِنَ المَلاَئِكَةِ، فَقَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ﴾[2]، «أَمَّا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ فَنَارٌ تَحْشُرُ النَّاسَ مِنَ المَشْرِقِ إِلَى المَغْرِبِ، وَأَمَّا أَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الجَنَّةِ فَزِيَادَةُ كَبِدِ حُوتٍ، وَإِذَا سَبَقَ مَاءُ الرَّجُلِ مَاءَ المَرْأَةِ نَزَعَ الوَلَدَ، وَإِذَا سَبَقَ مَاءُ المَرْأَةِ نَزَعَتْ»، قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ، يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ اليَهُودَ قَوْمٌ بُهُتٌ، وَإِنَّهُمْ إِنْ يَعْلَمُوا بِإِسْلاَمِي قَبْلَ أَنْ تَسْأَلَهُمْ يَبْهَتُونِي، فَجَاءَتِ اليَهُودُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَيُّ رَجُلٍ عَبْدُ اللهِ فِيكُمْ». قَالُوا: خَيْرُنَا وَابْنُ خَيْرِنَا، وَسَيِّدُنَا وَابْنُ سَيِّدِنَا، قَالَ: «أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْلَمَ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلاَمٍ». فَقَالُوا: أَعَاذَهُ اللهُ مِنْ ذَلِكَ، فَخَرَجَ عَبْدُ اللهِ فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، فَقَالُوا: شَرُّنَا وَابْنُ شَرِّنَا، وَانْتَقَصُوهُ، قَالَ: فَهَذَا الَّذِي كُنْتُ أَخَافُ يَا رَسُولَ اللهِ"[3].

في الإعجاز العلميّ

في أشراط السّاعة

في الأدعية والأذكار

«اللَّهُمَّ طَهِّرْ قَلْبِي مِنَ النِّفَاقِ، وَعَمَلِي مِنَ الرِّيَاءِ، وَلِسَانِي مِنَ الكَذِبِ، وَعَيْنِي مِنَ الخِيَانَةِ، فَإِنَّكَ تَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ»[4].

(١) ابن عجيبة. (٢) سورة البقرة، الآية: ٩٧.

(٣) رواه البخاريّ في صحيحه، عن أنس، كتاب: تفسير القرآن، باب: ﴿من كان عدوًّا لجبريل﴾، حديث رقم: ٤٤٨٠.

(٤) رواه السيوطيّ في الجامع الصغير، عن أم معبد الخزاعيّة، كتاب وباب: حرف الألف، حديث رقم: ١٥٢٩.